

هوسرل وأزمة العلوم الأوربية

د. ايت احمد نورالدين

جامعة سعيدة

الملخص بالعربية:

إن البشرية، منذ فجر ظهورها، لم تدخر جهدا في محاولة السيطرة على الطبيعة وما فيها من مخلوقات وتضمن بالتالي ونهيئ لنفسها البقاء والسيادة المطلقة على كل شيء، فبعد المحاولات الساذجة لسكان الأرض البدائيين، ظهرت العلوم، باعتبارها الفهم والتحليل الصحيحين للظواهر، فقدمت هذه الأخيرة الحلول الممكنة حسب كل مكان وزمان، إلا أن هذه العلوم - بدلا من أن تحل مشكلات البشرية التقليدية- أوقعتها في أخرى مركبة ومعقدة، وعليه فيبقى الحل الوحيد لهذه الأزمة، هو الرجوع للفلسفة باعتبارها الراعي الرسمي للحكمة والموصلة إلى السعادة.

الكلمات المفتاحية: هوسرل- الأزمة- العلوم- الفلسفة- الحل -البشرية- التقدم- الحكمة-

الوعي - التنسيق .

Abstract :

Since its dawn, humanity has spared no effort in trying to control nature and its creatures and thereby guarantee and maintain itself and absolute sovereignty over everything. After the naïve attempts of primitive land inhabitants, science has emerged as the correct understanding and analysis of phenomena. These science presented possible solutions everywhere and time. However, instead of solving the problems of traditional humanity, these science have brought them into complex and complex other ways. The only solution to this crisis is to revert to philosophy as the official sponsor of wisdom and connected to happiness.

تمهيد:

يعد تاريخ البشرية بمثابة سجل طويل للتحديات التي فرضتها الطبيعة على الإنسان، والتي تحتم عليه تجاوزها وفك ألغازها. وهكذا ظلَّ الإنسان في صراع مع هذه الظواهر القوية، ومن خلال الأخذ بمبدأ المحاولة والخطأ، اهتدى إلى بعض الحلول مع عدم تكرار أخطاء السابقين وتراكم هذا التراث الإنساني المشترك، كل ذلك أوصل إلى تكوين المعارف العلمية الصحيحة.

لكن لا شيء من الأشياء يبقى على حال واحدة، ولا شيء مما أوجده الإنسان اتصف بالمطلق والكمال، بل إن قانون التغير والتحول حتمي وشامل، لذا فإننا نجد أن العلوم التي عالجت بعض القضايا وفكَّت رموزها، هي ذاتها التي أوقعتنا في وضعيات خطيرة تقتضي التعامل معها وتجاوزها. لذا نجد أنفسنا أمام التسليم بالقضية التالية: لا يمكن الأخذ بالعلوم التي تحل المعضلات من جهة، ومن جهة أخرى تسبب الأزمات .

نظرة هوسرل للأزمة :

ينعت هوسرل الوضعية التي ينصب عليها تحليله بأنها وضعية أزمة، أزمة تعاني منها العلوم، وعند الحديث عن أزمة للعلم، ينصرف اهتمامنا عادة إلى مفهوم الأزمة كما تم استعمالها في حقل الأبيستمولوجيا، حيث تشير الأزمة إلى اللحظات الحرجة التي تعرفها العلوم في تطورها، التي يبدو فيها أنها قد أصبحت عاجزة عن الاستمرار في النمو والإنتاج.

عادة ما يتم إرجاع هذه الأزمة إلى غموض في المفاهيم التي يتأسس عليها العلم أو على نقائص في مبادئه ومناهجه.

وقد كان إيدموند هوسرل، بحكم تكوينه العلمي في مجال الرياضيات والمنطق، وبحكم تتبعه لحركة العلوم في عصره، على معرفة دقيقة بوضعية هذه العلوم، كما سبق له أن بيّن أن العلوم الوضعية ليست قائمة على أسس متينة، وأنها تستعمل مفاهيم غير واضحة، ومع ذلك لم يكن هوسرل يرى داعياً للشك في علمية هذه العلوم. فالنجاحات النظرية والتطبيقية التي حققتها

هذه العلوم تُعد في نظره مؤشرا على صرامتها وعلميتها. وحتى التحولات الحاسمة التي عرفتها بعض العلوم لا يرى فيها مساسا بعلميتها. يقول عن الفيزياء: " وسواء أكانت الفيزياء ممثلة من طرف نيوتن أو بلانك أو آينشتاين أو من طرف أي كان في المستقبل، فإنها كانت دائما وستبقى علما دقيقا، وإنه لا ينبغي أبدا أن نتوقع بلوغ شكل نهائي مطلقا لأسلوب بناء النظرية في كليتها ولا حتى أن نطمح إليه.¹ " فهو يدرك أن هذه العلوم لم تبلغ المطلق أو تدّعي أن ما تصل إليه من نتائج هو نهائي أو مطلق، بل قد يكون فيها بعض النقائص، لكن ذلك لا يقلل من شأنها طالما أن النتائج التي تحققها على ساحة الواقع مقبولة ومُرضية.

إن هوسرل رغم تأكيده على المشاكل، بل والمفارقات التي تعرفها العلوم الحديثة لا يضع علميتها موضع الشك، ولا يعتقد أن أفق نموها وتطورها أصبح مسدودا، ومع ذلك، فإنه لا يكتفي بأن يؤكد على أن العلوم الحديثة تعرف في عصره أزمة حادة، بل يجعل هذه الأزمة موضوعا لأهم وآخر مؤلفاته: أزمة العلوم الأوروبية.

لكن بأي معنى يتحدث هوسرل عن أزمة العلوم؟

إن الأزمة التي يتحدث عنها هوسرل تتعلق بدلالة العلوم الحديثة بالنسبة للإنسان وللوجود البشري، فنظرة الإنسان الحديث إلى العالم أصبحت، انطلاقا من منتصف القرن 19، تتحدد بكيفية شبه تامة من قبل العلوم الوضعية، والأسلوب الذي تعالج به هذه العلوم موضوعاتها، أصبح يطبع ويميز تفكير الإنسان في مختلف المجالات. ونتيجة ذلك هي التخلي عن كل الأسئلة الحاسمة بالنسبة للإنسان، واتخاذ موقف اللامبالاة إزاءها. إن العلوم الحديثة ليس لديها ما تقوله في الوضعية الحرجة التي نعيشها، بل وأكثر من ذلك، إنها مسؤولة بكيفية ما عن هذه الوضعية. كما تتجلى أزمة العلوم، حسب هوسرل: " في إقصائها للأسئلة الأساسية والحاسمة بالنسبة للوجود البشري كله، تلك الأسئلة التي تتعلق بمعنى الوجود البشري أو لا معناه، التي

¹Edmund Husserl, La Crise des Sciences Européenne et la Phénoménologie Transcendantale, Trad. Par Gérard Granel, Gallimard, 1976, p 02 .

تتعلق بالعقل واللاعقل، والتي تتعلق بسلوك الإنسان إزاء المحيط البشري وغير البشري، وبحريته في أن يُشكل محيطه حسب معايير العقل.²

تذكرنا هذه الوضعية بالحالة التي عاشها سقراط حينما لاحظ أن فلاسفة الطبيعة آنذاك بلغوا مبلغا كبيرا من التقدم في مجال الطبيعة ولا أدل على ذلك من أن عالما مثل ديمقريطس حوالي القرن 5 ق م الذي وصل إلى أن الذرات تحكم الطبيعة، وهو لا يملك آنذ أداة علمية ولا مخبرا، لكن في مقابل هذا التقدم، ظلت علوم الإنسان متأخرة فطرح سقراط سؤاله الذي أحدث أول ثورة ابستمولوجية على الإطلاق في تاريخ البشرية، عندما قال لهم أنتم تعرفون كل شيء عن الطبيعة، لكن هل تعرفون أنفسكم؟ !.

إن علوم الطبيعة لا تطرح هذه الأسئلة، لأنها تقوم على استبعاد كل ما هو ذاتي، أما العلوم الإنسانية، التي عليها أن تهتم بالوجود الروحي للإنسان، فإنها تفعل ذلك، غير أن علميتها الصارمة تفرض على الباحث أن يتجنب اتخاذ أي موقف، أو إصدار أي حكم قيمة حول هذه القضايا الحاسمة بالنسبة للإنسان، فالعملية تقتضي وتفرض، حسب المنظور السائد، الاختصار على مراقبة الوقائع وتسجيلها، سواء كانت هذه الوقائع متعلقة بالعالم الفيزيائي أو الروحي، وواضح أن إبعاد الأسئلة الأساسية بالنسبة للوجود البشري من مجال العلم، يجعل العلوم الحديثة عاجزة عن مساعدة الإنسان في إعطاء معنى لوجوده وفعله، وعلى توجيه حياته الفكرية والعلمية.

إذن، فالأمر لا يتعلق، عند هوسرل، بأزمة تهمة العلم والعلماء، وينحصر وجودها في المعاهد والمؤسسات العلمية فقط، بل بأزمة شاملة تمسّ الوضعية العامة وتنتشر في كل مجالات الحياة. وإن هوسرل يشير إلى الوضعية التي كانت سائدة في العقود الأولى من هذا القرن، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، تلك الوضعية التي كانت تشغل بال كثير من المتفكرين الألمان آنذاك، والتي يربطها هوسرل بهيمنة التصور الحديث للعلم أساسا.

²Edmund Husserl, Op, cit. p 04.

إن أزمة العلوم الحديثة تتجلى في تشتتها، الذي يرجع بالأساس إلى استقلالها عن الفلسفة، وهكذا فإن أزمة العلوم الحديثة هي، في نفس الوقت، أزمة الفلسفة الحديثة. إن الفلسفة لا يمكن أن تحقق مهمتها ومعناها الأصليين، إلا إذا كانت تحتضن كل العلوم الجزئية. هذا هو المعنى الأصلي الذي اتخذته الفلسفة منذ نشأتها في زمن اليونان القديمة، والذي تمّ إحيائه في عصر النهضة، ولعلنا نتذكر ما أعابه ماركس على الفلسفات التبريرية السابقة له من أنها بقت تسبح في الفضاء وفي المثاليات لتفسر الكون، في حين يتعلق الأمر - في نظره - بضرورة في غاية الأهمية والأولية وهي الفلسفة كأداة تغيير، أي استعمال الفلسفة كوسيلة لتغيير أوضاع الإنسان والمجتمع مما هي عليه إلى حال أفضل، يقول: "إن الفلاسفة حتى الآن لم يقوموا سوى بتفسير العالم بطرق مختلفة، لكن المشكلة باتت في تغييره".³

وكما نجد ذلك مع الفلاسفة الوجوديين، فلاسفة العقل، من أمثال سارتر، إذ نجده يقول: "ليس الإنسان سوى مشروعه، وهو لا يوجد إلا في حدود تحققه، فهو إذن لا شيء سوى أفعاله، لا شيء سوى حياته".⁴ إننا نفهم من هذا الكلام أن ينزل الفيلسوف أو المفكر، حين يمارس عملية التفكير، من أحلام اليقظة إلى التفكير القابل للانطباق على الواقع.

إن الأزمة التي يتحدث عنها هوسرل هي أزمة فقدان المعنى، أزمة التوجه الأخلاقي والاجتماعي والسياسي لدى أوروبا، وهي في الوقت نفسه أزمة العلم والفلسفة باعتبارها المبدأ المؤسس للبشرية الأوروبية. إن أوروبا التي تأسست انطلاقاً من روح العلم والفلسفة لا يمكن أن تكون سليمة إلا إذا حققت الفكرة التي تملئ كيائها وتعطي معنى لوجودها وما يدل على أن هذه الفكرة لم تتحقق هو توزع الفلسفة إلى تيارات ونزعات مختلفة. إننا لا نتوفر، كما يلاحظ هوسرل، على فلسفة واحدة، تساهم الأجيال المختلفة في بنائها، وتتقدم تدريجياً نحو التحقق الكامل: "فبدلاً من فلسفة واحدة حية، لدينا أدبيات فلسفية، وأعمال فلسفية، تتزايد بلا حدود، ولكن تفتقد وتفتقر إلى كل رابط بينها، وبدل حوار جذّي بين نظريات متعارضة تعلن رغم تضاربها

³Karl Marx, Thèse sur Feuerbach, Ed, Sociales, T1, 1978, p.25.

⁴Jean Paul Sartre, L'Existentialisme est un humanisme, Folio Essais, Ed, Gallimard, 1996, p, 55.

ترابطها الداخلي ووحدة اقتناعاتها الأساسية، وإيمانها الثابت بفلسفة حقيقية، لدينا توافق مظهري ونقد مظهري، لا تفاعل جدي للفلاسفة فيما بينهم.⁵

يبدو جليا أن هوسرل في هذا القول يمارس الاستمولوجيا الفلسفية وموضوع دراسته ونقده، هو إنتاج أوروبا العلمي والفلسفي، فبالرغم مما أنتجه أبناء جلدته و هو على أهميته، ومع ذلك فهو يقول أننا (يقصد الأوروبيون) لم نقم بالعمل كما كان ينبغي له، فهو ينتقد: التشئت، التفكير الارتجالي، النقد السطحي، ويدعو في المقابل أن يأخذ المفكرون ما يلزمهم من وقت وجد.

إن فحتى الأداة التي يرجى أن تؤدي الكثير وتساهم في حل هذه الأزمة، وجدت نفسها في أزمة التشئت والتنوع، وفي مقابل وضعية التراجع والتمزق التي تطبع الفلسفة، تعرف العلوم الجزئية تقدما هائلا يتجلى في تحقيقها لانتصارات باهرة، سواء على المستوى النظري أو التقني والتطبيقي .

وإذا كانت العلوم الجزئية تتابع مسيرتها غير مهتمة بالوضعية المزعجة التي تعاني منها الفلسفة، فإن ذلك لا يعني أن هذه العلوم لا تعيش الأزمة، فوضعية الفلسفة تنعكس على العلوم أيضا، لأنها بدون فلسفة تفقد ما يعطي معنى لوجودها وما يربطها بوضعية الإنسان، وطالما أن كل عالم - أثناء علمه وبحثه - إنما يمارس التفلسف سواء أشعر بذلك أم لم يشعر، إذ أن الأسئلة التي يطرحها العلماء كأرضية يؤسسون عليها نظرياتهم وعلومهم هي في الأصل أسئلة فلسفية، أو لنقل - على أقل تقدير - هو نفس النشاط الذي يمارسه الفيلسوف (فداخل كل عالم فيلسوف)، كما أن العلوم لا يمكنها الارتقاء والتطور بمفردها، بل كثيرا ما تكون انتقادات الفلاسفة لها هي من يقف وراء ذلك التطور، إذن: فإن مرض الفلسفة معد للعلوم.

وهكذا، "فالأزمة عند هوسل غامضة، ولها في الوقت ذاته بعدا مجسدا موضوعيا وتاريخيا، وبعدا داخليا شخصيا وذاتيا".⁶

⁵ إيدموند هوسرل، تأملات ديكرتية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، د ط، 1958، ص 50، 49.

1- البعد الأول: ويمكن التعبير عنه بمرض الثقافة. حيث تعيش الثقافة حالة سيئة للغاية: "فلقد انهارت الأنساق الكبرى التي صنعت مجد الفكر الألماني في القرن ال19 إذ صار هيغل رغم عظمتة تحت الظل، وتضاءل تأثير شوبنهاور وشلنج، واعتبر نيتشه عبقريا معتوها".⁷ والنتيجة هي أن العلم أخذ يعوض الفراغ الذي أحدثته الفلسفة.

أما الفلسفة التي تريد فرض نفسها، والحفاظ على البقاء، يجب عليها أن تميل إلى النزعة الوضعية وتلبس ثوبها: " بالفعل نحن في وقت انتصرت فيه الواقعية الجديدة لبرتراند راسل، الوضعية الجديدة لفيتجنشتاين ، الفلسفة التحليلية لكارناب، كما نشهد على صعيد آخر تطور الرياضيات بفضل جهود كل من جورج كونتور وويرستراس-أستاذ هوسرل- والتي أدت إلى وضع نظرية المجموعات الشكالية والتي تهدف لتوحيد المتعدد. نحن نشهد إذن انتصار النزعات الوضعية التي تولدت من رغبة إقصاء الفلسفات المثالية لكانط وهيغل".⁸ إذن حاولت الفلسفة، متأثرة بالنزعة الوضعية، التشبه بالعلم ونبذ كل عناصر معنوية داخلية في الإنسان والتركيز على العناصر المحسوسة.

2- البعد الثاني: ويمكن التعبير عنه بالتأثير السيئ للأحداث على نفسية هوسرل، حيث توالى المصائب والفجائع عليه، ولا تأتي الأحران إلا مجتمعة، على حد قول أحد الشعراء (فالهم كالسيل والأمراض زاخرة - حُمِر الدلائل مهما أهلها كتم: "فيصاب ولداه اللذين تطوعا في الحرب العالمية الأولى فيقتل أصغرهما فيها سنة 1917، كما يضطهد في مكان عمله بسبب عرقه اليهودي من قبل السلطة الحاكمة ممثلة في النازية، ويلغى اسمه من قائمة الأساتذة

⁶S.Goyard Fabre, Philosophie Politique, 19,20, siècle, PUF, 1987, p463.

⁷S.Goyard Fabre, Op, cit. p465.

⁸- S.Goyard Fabre, Op, cit. p467.

المحترفين في الجامعة عام 1933، ويحرم من المشاركة في الملتقى العالمي للفلسفة في باريس سنة 1937".⁹

إذن فهذه الحالة هي حالة درامية متشعبة، ولها مظهران موضوعي متمثل في تسلط النزعة الهتلرية والتي تسببت في بؤس الفلسفة، ومظهر ذاتي شخصي ، ومثلما كان من أوائل ضحاياها، فلاشك أن القائمة ستبقى مفتوحة وسيكتوي الكثير بنيرانها، وعندئذ فإما أن يصمد أو يهاجر إلى بلد أكثر أمناً.

طريقة الخروج من الأزمة:

لا يتصور هوسرل حلاً وخروجاً من هذه الحالة التي تعيشها العلوم الأوروبية، إلا بالرجوع إلى الفلسفة ، لكن لا يقبل بأية فلسفة كانت، بل يضع شرطاً لها ، وهو بالذات ما حمل عنوان أهم كتبه (الفلسفة كعلم صارم) ، فيقول: " إن الفلسفة تمثل إلهام الإنسانية الثابت للمعرفة الخالصة والمطلقة".¹⁰ يعني ذلك أن العلوم التجريبية، وبالرغم مما بلغت من تطور وتقدم، إلا أنها تبقى ناقصة لأنها تقدمت في جانب واحد من الظواهر هو الجانب المادي المحسوس، كما أن هذه العلوم التجريبية يعيبها النظرة التجزئية، فكل علم يشتغل بمعزل عن غيره، وهكذا ينقصها عملية في غاية الأهمية هي الربط والتنسيق فيما بينها، وهذا هو بالذات عمل ونشاط الفيلسوف، لكن حتى الفلسفة ينبغي لها وللمن يمارسها، أن يتعاطاها بشكل خاص ومحدد- كما يفهم هوسرل- لكي تؤدي الغرض المرجو منها.

وبالفعل، فإن كانت الفلسفة - في نظر هوسرل المصدر والأداة الأساسية لإمكانية تحقيق معرفة يقينية ومطلقة، وأن تكون في الأساس علم يوثق به، فإن لا شيء من ذلك كله تحقق حتى الآن، بالرغم من جهود الفلاسفة : " لم تحقق الفلسفة، في ولا فترة من تطورها ، أمل أن تكون علماً دقيقاً، ولا حتى في الفترة الراهنة المعاصرة بدءاً من عصر التجديد إلى

⁹ Dominique Folscheid, la philosophie Allemande de Kant à Heidegger, PUF, mars 1993, p254.

¹⁰ Husserl, La philosophie comme science rigoureuse, T.par M.B de Launay, PUF, 1989, p.12.

يومنا.¹¹ يشير هوسرل هنا ، إلى المرض الذي لحق بالفلسفة والفلاسفة، وهو ذات مرض العلوم التجريبية صاحبة النظرة التجزيئية، فالفلاسفة - صاروا هم أيضا- يشتغلون لحل الأزمة، لكن كلٌّ يغني على ليلاه، في حين المطلوب منهم تنسيق تلك الجهود ضمن عمل وجهد جماعي. وكأنني بفيلسوفنا- هوسرل- يتمنى الرجوع إلى الزمن الذهبي، الزمن الذي كان فيه الفيلسوف هو الرجل الذي يدرك الحكمة ، دون سواه، وعلى عاتقه يحمل هموم مجتمعه، ويسهر الليالي الطوال في تأمل النجوم حتى ينجلي الظلام وتشرق أشعة الشمس عسى أن تمده بخيوط الحل.

خاتمة:

وعليه فإننا نقول، أن العلوم تقوم بجهود جبارة، ولا يخفى على عاقل ما تحقّقه من تطور في شتى مجالات الحياة الراهنة، لكن ما يخفى على أذهان الكثيرين منا هو ممارسات بعض العلماء والمخابر سواء في العلن كما في السر، إذ أن بعض العلماء في مخابر سرية يقومون بما يستطيعون لحل مشكلات البشرية المتجددة والمستقبلية: التحول الجنسي، الجندر، تأجير الأرحام، الموت الرحيم وغيرها، ولو أننا تساءلنا، من أوصل البشرية إلى مثل هذه الوضعيات؟ أليس هو التقدم العلمي الذي لا تحده قيود ولا ضوابط ؟ بالفعل إن ما يعيشه الإنسان من ضيق الأمل وانسداد الرؤية، لا يعود إلا للتقدم العلمي اللانساني أي المفرغ من الجانب الروحي العاطفي، والحل المنجي لهذه الحالة، هو الرجوع لجهود الفيلسوف " موظف البشرية " الموحدة.

¹¹ Husserl, Op, cit. p11.

قائمة المصادر والمراجع:

- بالعربية:
- إيدموند هوسرل، تأملات ديكارتيّة، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، د ط، 1958.
- باللغة الفرنسية:
- _Edmund Husserl, La Crise des Sciences Européenne et la Phénoménologie Transcendantale, Trad. Par Gérard Granel, Gallimard, 1976 .
- _Karl Marx, Thèse sur Feuerbach, Ed, Sociales, T1, 1978.
- _Jean Paul Sartre, L'Existentialisme est un humanisme, Folio Essais, Ed, Gallimard, 1996.
- _ S.Goyard Fabre, Philosophie Politique, 19,20, siècle, PUF, 1987.
- _Dominique Folscheid, la philosophie Allemande de kant a Heidegger, PUF, mars 1993.
- _Husserl, La philosophie comme science rigoureuse, T.par M.B de Launay, PUF, 1989.